ما وراء البيان

الأستاذ شفيق جبري

إذا كنا نلجأ إلى تقليب النظر في محاسن البيان في قديم عصورنا فلا نفعل هذا لمجرد الاهتداء إلى ألفاظ حلوة وتراكيب تشتمل على مثل هذه الحلاوة ، إذا كان هذا هو غرضنا من المحافظة على أدبنا فلا خير في محافظتنا . إنا لا نستحسن ما يستحسن من بياننا القديم لمجرد الصيغة وحدها، فإن وراء هذا البيان الذي يبلغ منا كل مبلغ عقولاً راجحة ، وفطناً ثاقبة ومداخل ومخارج في أمور الحياة تعلمنا وترشدنا أبلغ تعليم وإرشاد . فإذا وقع نظرنا في مطالعاتنا على جمل لبلغاء كتّابنا فلا ينبغي لنا أن تشغلنا بلاغة هذه الجمل عن التدقيق في الذي تنطوي عليه ، فلا ينبغي لنا أن تصرفنا حلاوة الألفاظ عن حلاوة ما تعبّر عنه هذه الألفاظ ، ولسنا نحافظ على أصالة أدبنا القديم للأصالة وحدها ولكنا نعتقد أن هذا الأدب يتضمن كنوزاً من عظمة العقول مما لا سبيل إلى إحصائه ، فإن أكثر كتّابنا المتقدمين لم تكن بلاغتهم قائمة على اختيار الألفاظ وحدها والتأنق في تنسيقها والجهد في رصفها وإنما جمعوا بين بلاغة اللفظ وبلاغة المعنى الذي يفصح عنه هذا اللفظ ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا ريب في أن الألفاظ وحدها إذا لم تدل دلالة صحيحة على المعاني كانت باطلة لا عمل لها في النفوس ، وأن المعاني إذا لم تصورها ألفاظ تدل عليها دلالة قوية ضاعت فلا نحسّ لها بأثر ، فالكتّاب البلغاء الذين اشتهروا في قديم عصورنا إنما اشتهروا لحسن تنسيقهم بين الألفاظ والمعاني ، ولذلك إذا مررنا بقطعةٍ كان لألفاظها وقع في نفوسنا فجدير بنا أن نبحث عن محاسن ما وراء هذه الألفاظ . والنماذج من هذا الشكل كثيرة في أدبنا :

تأخرت أرزاق الجند وتراخت أعطياتهم على أيام المأمون ، وقد يدل هذا التأخر على اختلال النظام في الدولة ولا يستحسن أن لا يُعلم خليفة مثل المأمون بأمرٍ من هذا النوع لأن كتمانه قد يؤدي إلى شيء من الفساد ، فما هي السبيل إلى إطلاع المأمون على حالة الجند ؟ لقد اهتدى عمرو بن مسْعدة إلى هذه السبيل ، وكان يُعدّ من بلغاء الكتّاب في دولة العباسيين ، قال في كتابه إلى المأمون :

« كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قِبلي من قوّاده ورؤساء أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعة جندٍ تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاةٍ تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم والتاثت معه أمورهم » .

لا حاجة بنا إلى التنبيه على البراعة في هذه السطور القليلة فإن صاحبها قد فطن إلى ما يقال وإلى ما لا يقال في مسألةٍ مثل هذه المسألة الدقيقة ، فإذا اقتصر عمرو بن مسعدة على مجرد إعلام المأمون بتأخر الأرزاق وتراخي الأعطيات كان في هذا الاقتصار ما قد يغضب المأمون ، أو قد يسوؤه إذا لم يغضبه ، وإذا لم يشر في كتابه إلا إلى انقياد القواد ورؤساء الأجناد وإلى طاعتهم وأغفل ذكر حقوق الجند فقد يكون في هذه الإشارة ما يخلّ بحقوق الذين يدافعون عن الدولة بأرواحهم . ولكن عمرو بن مسعدة جمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بين ذكر الأمرين : أمر الانقياد والطاعة وأمر تأخر الأرزاق ، فأرضى بهذا الجمع المأمونَ والجندَ في وقتٍ واحد .

إن المأمون لم يهتم ببيان عمرو بقدر ما اهتم بما عبّر عنه هذا البيان ، فليس في كلام عمرو شيء من التأنق وإنما استعمل الألفاظ البسيطة للدلالة على ما يريد الدلالة عليه كالانقياد والطاعة والتأخر والتراخي والاختلال وغير ذلك . ولكن الذي أعجب المأمون إنما هو ما انطوت عليه الألفاظ البسيطة من فهم صحيح في مكاتبة خليفة مثل المأمون . فقد استعمل عمرو كل الأدب في كتابه فحرص على إعطاء المأمون ما يستحقه من الإجلال والتعظيم وحرص على حقوق الجند والقوّاد . وقد أدى وقع الكتاب في نفس المأمون إلى أن أمر للجند بإعطياتهم لسبعة أشهر وأمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر . وبلغ من حسن أثر هذا الكتاب إلى أن قال المأمون لأحمد بن يوسف : لله درّ عمرو ما أبلغه ! ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار ، وإعفائه سلطانه من الإكثار .

ونجد في كتاب : أمراء البيان ، للأستاذ الرئيس محمد كرد علي فصلاً يتصل بعصر ابن الزيات ونشأته ووزارته ونماذج من إنشائه ، منها هذا الكلام القليل : فقد أمر الواثق ابن الزيات أن يتلطف بعبد الله بن طاهر ويعلمه أنه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم وفوّض ذلك لابن عمه إسحق ابن إبراهيم ، فكتب ابن الزيات :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

قال الأستاذ الرئيس كرد علي في خاتمة هذا الكتاب : وليس في الوصول إلى الغرض مع مراعاة المكتوب إليه أوجز ولا ألطف من هذا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لا نظن أن من الهيّن أن يُعلمَ صاحب عمل في الدولة بصرفه عن عمله ، فقد يكون هذا العمل جزءاً من نفسه ، من حياته ، لا يعيش دونه إلا في كدرٍ وتنغيص ، كما أنه ليس من الهين أن يُعلَم بخَلفه في العمل الذي صُرف عنه ، فإن هذا الخلف قد يكون أبغض الناس إليه لا يصفو له قلبه ، ولا يخلص له حبه ، فكيف السبيل في مثل هذه الحال إلى حلٍّ وســـط كما نقول ؟ كيف السبيل إلى إعلام المصروف عن العمل بخلفه في هذا العمل دون أن يثور غضبه ويهيج غيظه ؟ السبيل إلى ذلك ما فعله ابن الزيات في سطر واحد ، فلم يترك لعبد الله بن طاهر عذراً في العتاب ، فإن الذي خلفه إنما هو ابن عمه . ولا شك في أن ابن طاهر لا يسره صرفه عن العمل ولكنه لا يجد سبيلاً إلى الإفصاح عن ذلك ، فلم يأت الواثق بعدوٍ له ، وإنما أتى بابن عمه فقطع عليه كل طريق إلى العتاب

* * *

إذا أردنا أن نستشهد بنماذج من البيان الذي يختفي وراءه عقل كبير فإنا نجد أن أدبنا القديم حافل بأمثال هذه النماذج ، وقد يكون كتاب عمرو بن مسعدة إلى المأمون وكتاب ابن الزيات إلى عبد الله بن طاهر لا شهرة لهما في أدبنا ولا ذكر لهما في هذا الأدب ، ولكنهما على الرغم من قلة شهرتهما أو من عدم هذه الشهرة يدلان على براعةٍ في بيان وراءه فهم ثاقب وفطنة نافذة . وإذا كانت كتب الجاحظ تعلّم العقل أولاً والأدب ثانياً فما أجدرنا بالتفتيش عن الكتب القريبة من هذا النمط وإن كان الجاحظ في هذا الباب السماء التي لا تطاولها سماء .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net